أبو العلاء المعري والتفكير الفلسفي في لزومياته

إعداد

أ/ ناديه بنت حسن ضيف الله الصاعدي

محاضر بجامعة الباحة كلية العلوم والآداب بالمخواه

مجلة بحوث التربية النوعية – جامعة المنصورة

عدد (٢٦) – يوليو ٢٠١٢

أبو العلاء المعري والتفكير الفلسفي في لزومياته

إعداد

أ. ناديه بنت حسن ضيف الله الصاعدي*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين

وبعد...

فقد تميز العصر العباسي بنقلة حضارية كبرى كانت نتيجة اتصال العرب بغيرهم من الأمم المجاورة ، وكان نتيجة هذا الاتصال أن تأثر شعراء العصر العباسي بالعلوم التي نقلوها عن الأمم الأخرى كالفلسفة ١ والمنطق٢ ، وبرز مجموعة من الشعراء الذين وظفوا هذه العلوم في شعرهم ، وحملوا لواء التجديد مع المحافظة على القديم أمثال أبي تمام والمتنبي والمعري.

إن تاريخ الإبداع البشري كله قائم على الإضافة والتجريب،فالتجريب هو المصدر الأهم الذي يحقق الإضافة الإبداعية النوعية المتميزة ، وصحيح أن عملية التجريب قد تصل إلى الإخفاق أحياناً ولا يحالفها النجاح، لكن الصحيح أيضاً أن التجريب هو الذي يفتح الآفاق أمام ظهور الجديد وأمام التطور بشكل عام .

فالتجريب يصدر عن رغبة في رؤية الأشياء من زاوية جديدة ، وكسر قواعد المنظور التقليدي ، فالتجريب مغامرة فنية وعقلية وروحية، تحاول أن تلبي حاجات عصر جديد، وترتبط بالأفكار والتصور والمذاهب الفلسفية التي تميز العصر.

ومن هنا كان في الشعر العربي القديم محاولات تجريبية قام بها الشعراء، وكانت بعض هذه المحاولات بذرة أولى لما نلحظه في القصيدة العربية المعاصرة، ومن هنا كان البحث عن أبي العلاء المعري والتفكير الفلسفي في لزومياته؛ باعتبار أن عمل أبي العلاء في لزومياته عمل إبداعي جديد ، استطاع من خلاله أن ينتج شعراً يقوم على أفكار ونظرات فلسفية ، بناه وفق تخطيط دقيق، وألزم نفسه بلوازم شكلية معقدة ، أخرجها في ديوان شعري يختلف، شكلاً ومضموناً، عن إنتاج الشعراء المعاصرين والسابقين له، إذ مرت حياه المعري بمرحلتين اختلف فيهما شعره اختلافاً كبيراً:

---

* محاضر بجامعة الباحة كلية العلوم والآداب بالمخواه

[1] جاء في المعجم الوسيط في مادة الفلسفة : دراسة المبادئ الأولى وتفسير المعرفة تفسيراً عقلياً. وكانت تشمل العلوم جميعاً، واقتصرت في هذا العصر على المنطق والأخلاق وعلم الجمال وما وراء الطبيعة. والفيلسوف :العالم الباحث في فروع الفلسفة ص٧٣٣

[2] جاء في المعجم الوسيط المنطق: الكلام .وفي التنزيل العزيز(علمنا منطق الطير).وعلم يعصم الذهن من الخطأ في الفكر. ويقال فلان منطقي: عالم بالمنطق، أو يفكر تفكيراً مستقيماً ص٩٧١

١. مرحلة ما قبل العزلة ويمثلها ديوانه (سقط الزند) ، ويشمل الموضوعات التقليدية من مدح وغزل ورثاء وغيره، ويشغل المدح القسم الأكبر منه؛ ففيه أربع وثلاثون قصيدة في المدح، ومع أنه لم يتكسب بشعره إلا أن هذا المدح أرجعه بعض شراحه إلى أنه كان من سبيل التدريب والمران على قول المدح، أما الهجاء فقد اختفى من ديوانه؛ وذلك لأن نفسه تأبى عليه أن يتمثل فيها الحقد والكراهية التي وجدها من معاصريه ، ويعد سقط الزند من الناحية الفنية امتداداً لمذهب المتنبي الذي كان أبو العلاء متأثراً به.

٢. مرحلة ما بعد العزلة ويمثلها ديوانه (اللزوميات) ، حيث تمثل اللزوميات مذهبه الفني في الشعر ، ولم تكن قضية أبي العلاء في النقد العربي قضية الأصالة الشعرية واختلاف النقاد حولها، كما كان الموقف مع المتنبي، وإنما كانت قضية جديدة ظهرت بداياتها عند أبي تمام، ثم المتنبي،ثم المعري، وهي قضية توظيف الفلسفة في الشعر ، و كيف تمكن المعري من تطويع الشعر للفلسفة بشكل جعل من المؤرخين له وصفه بالفيلسوف ، ومن هنا يدور البحث حول عدة إشكالات أبرزها :

- أبو العلاء المعري و ثقافات عصره .
- السبب الذي دفع المعري للاعتزال في منزله ،وأبرز مظاهر هذا الاعتزال في حياته.
- إنتاجه الشعري بعد إعلان عزلته .
- التفكير الفلسفي في لزوميات المعري.
- تطويع الشعر للفلسفة في اللزوميات .
- رأي الباحثين في لزوميات أبي العلاء .

أبو العلاء[1] المعري و ثقافات عصره: ولد أبو العلاء المعري سنة ٣٦٣هـ ، وهو عربي ينتسب إلى قبيلة عربية هي قبيلة تنوخ اليمنية ،ولم يكد يبلغ الرابعة من عمره حتى أصيب بمرض الجدري، فذهب بصره، ، وقد نشأ المعري في أسرة عرفت بالعلم، وكانت على قدر كبير من الثقافة الدينية مما أتاح لكثير منهم تولي منصب القضاء، ولم يكتف بذلك بل ثقف نفسه بثقافات عصره؛ وذلك عن طريق رحلاته لطلب العلم، فقد سعى إلى تحصيل ثقافات عصره المختلفة عن طريق رحلاته، يساعده في ذلك ذكاء حاد، وذاكرة قوية، وبصيرة نافذة، وحس مرهف، وحافظة لا تنسى شيئاً مما سمعته وهو القائل عن نفسه : "ما سمعت شيئاً إلا حفظته وما حفظت شيئاً فنسيته" ، ويتفق المؤرخون له بأنه شاعر حكيم فيلسوف، ويذكر البعض أنه عرف بالزندقة، والزهد الفلسفي، فيشكك في صحة إسلامه.

وعن رحلاته التي ساهمت في تشكيل مذهبه الشعري في لزومياته فقد ارتحل في بلاد الشام متنقلاً بين مدنها أنطاكية وطرابلس واللاذقية يستزيد علماً، ورحل بعدها إلى بغداد ولم يمكث بها طويلاً حيث أقام بها سنة وأربعة أشهر فقط ، لكن هذه الرحلة أثرت فيه تأثيراً بالغاً، إذ كانت بغداد

[1] ينظر ترجمته: معجم الأدباء(٥٥٥/١) تاريخ بغداد (٣٤٠/٤)،وفيات الأعيان (١١٤/١)،الأعلام (١٥٧/١)، نزهة الألباب في طبقات الأدباء ص٢٠٨

مركزاً للعلم والعلماء ، بالإضافة إلى المذاهب الدينية والفلسفية ، فتمكن من إتقان العربية والمواد اللغوية وأنواع الثقافات المختلفة من يونانية وفارسية وهندية، كما وتعمق في المذاهب الكلامية والتصوف، فاستغل هذه الحركة العلمية النشطة في بغداد فأكب على خزائن كتبها ، واتصل بعلمائها حتى ثقف نفسه ثقافة واسعة ظهرت في إنتاجه بعد ذلك.

وتتلخص "مصادر أبي العلاء الثقافية في : الثقافة العربية، الثقافة الأجنبية، رحلته إلى بغداد، بالإضافة إلى الاستعداد العقلي الذي فطر عليه"[1]، حيث كان حب العلم وتحصيله دأب الشعراء العباسيين المبدعين قبله، فقد تمثلوا الفلسفة في شعرهم وشغفوا بها، وهو شغف جعلهم يمزجونها بمعانيهم وخواطرهم، وكان بدايتهم أبو تمام حيث زاوج بين الشعر والفلسفة بأسلوب عرف به ، وتبعه شعراء حذو حذوه وإن اختلفوا في التوظيف، فابن الرومي عرف بتحليل المعاني تحليلاً مستقصياً، والمتنبي تميز بفلسفة أخرجت منه حكماً رائعة، وقد بلغ التأثر بهذه الثقافات وتوظيفها في الشعر قمته عند المعري وذلك في ديوانه (اللزوميات).

وقد بدأ التحول في حياة أبي العلاء بعد عودته من بغداد إلى بلدته ، حيث لزم بيته واعتزل الناس، وأسباب هذا التحول متعددة جعلته ينظر إلى الحياة بمنظار معاكس وهي :

- إحساسه المبكر بمحنة فقده لبصره وأنه لا يحيا حياة الناس، وهذا جعل نفسه حزينة يائسة ،وجعله هذا ينظر إلى الحياة من زاوية الشر دون الخير .
- الوضع السياسي في عصره فقد فسدت الحياة السياسية.
- تأثر الحياة الاجتماعية بهذا الفساد حيث كان مزمعاً على أن يقيم في بغداد إلى أن يوافيه يومه "ولكن لما رأى من تقطيب الرؤساء، و الأعيان، وتنافسهم في جلب النار إلى أقرانهم والافتتان، وأن الدنيا كما هي، مفطورة على الشرور والدواهي. وأن لذائذ الحياة ورغائبها، والمشتهيات ومطايبها من تقدير العزيز العليم، لا مدخل للجهد والكد في زيادة حبّه على ما منح الرازق الحكيم"[2]. خرج منها متخذاً قرار عزلته.

كان لخيبة الأمل في بغداد أثرها البالغ في نفسيته نتيجة ما لقي من حسد وبغض ، وسوء معاملة بعض الأدباء، ومنها ما حصل بينه وبين الشريف المرتضى ، حيث "حضر أبو العلاء المعري يوماً بمجلس الشريف الرضي، وكان أبو العلاء من غلاة شيعة المتنبي، فسمع الشريف ينال منه ويتعجب من إفراط الناس في استحسان شعره فقال له المعري كيف يكون ذلك في شأن أبي الطيب ولو لم يكن له إلا القصيدة التي أولها:

لك يا منازل في القلوب منازل　　أقفرت أنت وهنّ منك أواهل

[1] تجليات الإبداع الأدبي، دراسات في العصر العباسي الثاني د/محمود علي عبد المعطي ص٢٥٤، دار النشر الدولي ط١ (١٤٢٨_٢٠٠٧م)

[2] أبو العلاء وما إليه جمعه ورصفه عبد العزيز الميمني ص ١٢٨ دار الكتب العلمية ط١ (٢٠٠٣/ ١٤٢٤)

لنا بها السبق واستحق التقديم، فعجب الشريف لاختيار المعري لهذه القصيدة مع إنها ليست من فرائد المتنبي، وله الكثير مما هو خير منها فراجع أبياتها في نفسه حتى انتهى إلى قوله فيها:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي باني كامل

ففطن لما أراد المعري. ويقال: إنه أهانه لذلك"[1]. حيث أمر المرتضى بسحب المعري من رجله إلى خارج المجلس، ومن هنا أحس بمدى قسوة المجتمع وأهله عليه.

زاد من هذا الإحساس مرض أمه ورغبتها رؤيته قبل موتها، حيث ماتت ولم يرها مما عجل في اتخاذ قراره بأن يعتزل الناس .

ولهذه الأسباب مجتمعة نظر المعري إلى الحياة نظرة تشاؤم ، وزهد في ملذاتها، ورأى أنها مليئة بالشر،سواء حياة المجتمع، أو الحياة السياسية، أو حياته الشخصية ،ومن هنا لزم بيته وبدأت عزلته وأعلنها في قوله[2]:

أَراني في الثَلاثَةِ مِن سُجوني فَلا تَسأَل عَنِ الخَبَرِ النَبيثِ
لِفَقدِيَ ناظِري وَلُزومِ بَيتي وَكَونِ النَفسِ في الجِسَدِ الخَبيثِ

وقد علق د/ شوقي ضيف على هذين البيتين بقوله: " سجون ثلاثة أحاط بها أبو العلاء نفسه أو قل أحاطت بأبي العلاء ،فبصره في حجاب أو في سجن صفيق وهو في بيته لا يريم، ونفسه سجينة في جسمه.وسجن رابع لم يحدثنا عنه في هذين البيتين وهو زهده الذي أمسك وراء قضبانه الغلاظ حياته اليومية في مطعمه وملبسه ، فإذا هو يلبس خشن الثياب ولا يطعم سوى العدس والتين".[3]

وبعزلته بدأت لديه تحولات في حياته ، فقد زهد في متاع الحياة فامتنع عن الزواج، وحرم ذبح الحيوان والطير وأكل لحومهما ، ولبس خشن الثياب ،وعاش نباتياً ،وانقطع في بيته عن الناس وعكف على كتبه ، ولكن ذلك لم يمنع من أن يكون بيته مكاناً يلتف فيه تلاميذه ينهلون من علمه ويكتبون عنه، فهو لم يمنع الناس منه وإن امتنع هو عنهم .

لقد أنتج المعري بعد إعلان عزلته كتباً كثيرة من أشهرها: اللزوميات، رسالة الغفران، الفصول والغايات، ذكرى حبيب، معجزة أحمد، عبث الوليد. ونقف عند (اللزوميات) ففيها تظهر فلسفة المعري ، حيث شكلت حياة المعري وأثرها في نفسيته ، والظروف التي أحاطت به، والثقافة التي اكتسبها عن طريق الرحلات، ثقافة متميزة، فاتسم بعقل فلسفي تمثل الفلسفة الإسلامية ، والفلسفة الأجنبية من هندية وفارسية ويونانية، زاوج بينها حتى خرج بفلسفة جديدة (فلسفة علائية) لها أصولها ومقوماتها وطوابعها المميزة و التي أثرت في تشكيل اتجاهه الشعري.

---

[1] نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الانباري ص٢٠٨
[2] اللزوميات لأبي العلاء المعري شرح نديم عدي ص٢٧٢ دار طلاس (ط٢/١٩٨٨)
[3] فصول في الشعر ونقده د/ شوقي ضيف ص١١١،دار المعارف ط٣

لقد أطلق أبو العلاء المعري على ديوانه الذي كتبه في عزلته (لزوم ما لا يلزم)، ويعد بهذا الصنيع من أوائل الشعراء الذين عمدوا إلى تسمية دواوينهم، ومعنى لزوم ما لا يلزم" أن يلتزم الشاعر في شعره قبل روِي البيت من الشعر حرفاً فصاعداً،على قدر قوته،وبحسب طاقته،مشروطاً بعدمالكلف منه أن يلتزم حركة مخصوصة قبل حرف الروي أيضا وهو في رأي ابن الأثير مناشق هذه الصناعة مذهباً،وأبعدها مسلكاً.وعلى ذلك فاللزوم مظهر من مظاهر الصناعة اللفظية."[1] وهذا هو حد اللزوم، وقد وجدت اللزوميات قبل المعري وذلك عند كثير في تائيته[2] :

خليليَّ هـــذا ربعُ عُزَّةَ فاعقـــلا ... قلوصيكُما ثمّ ابكيا حيثُ حلَّـــتِ
ومُسّا تراباً كَانَ قَدْ مَسَّ جِلدهـــا ... وبِيتاً وَظِلاً حَيْثُ باتـــتْ وظلّـــتِ
ولا تيأسا أنْ يَمْحُوَ الله عنكُمـــــا ... ذنوباً إذا صَلَّيْتما حَيْـــثُ صَلّـــتِ
وما كنتُ أدري قبلَ عَزَّةَ ما البُكـا ... ولا مُوجِعَـــاتِ القَلبِ حتَّى تَوَلَّتِ
وما أنصفتْ أمّا النســـاءَ فبغضَّتْ ... إلينـــا وأمّا بالنـــوالِ فضنَّـــتِ
فَقَدْ حَلَفَتْ جَهْداً بما نحـــرَتْ له ... قريـــشٌ غـــداةَ المأزمينِ وصلّـــتِ
أُناديكَ ما حجَّ الحجيجُ وكبَّـــرتْ ... بفيفـــاءِ آلِ رُفقـــةٌ وأهلَّـــتِ
وما كبَّرتْ من فوقِ رُكبةَ رُفقـــةٌ ... ومِنْ ذي غَـــزَالٍ أشعـــرَتْ واسْتَهَلَّتِ
وكانت لقطع الحبل بيني وبينهـــا ... كناذرةٍ نـــذراً وفـــتْ فأحلـــّتِ
فقلتُ لها : يا عزُّ كـــلُّ مصيبـــةٍ ... إذا وُطِّنت يوماً لها النّفسُ ذلّـــتِ
ولم يلقَ إنسانٌ من الحـــبِّ ميعـــةً ... تَعُمُّ ولا عَميـــاءَ إلاّ تجلّـــتِ
فإن سألَ الوَاشُونَ فيـــمَ صرمْتَها ... فقُل نفـــسُ حـــرٍّ سُلِّيت فَتَسلَّتِ
كأنّي أُنادي صَخْرَةً حِينَ أَعْرَضَتْ ... من الصُمِّ لو تمشي بها العصمُ زلَّتِ

كما وجد عند الحطيئة نظير ذلك حيث التزم في بعض قوافيه إعادة مالا يلزمه طلباً للزيادة في التناسب والتماثل، ومن ذلك قوله[3]:

أَلا مَنْ لِقَلْبٍ عارِمِ النّظـــراتِ ... يُقَطِّعُ طُولَ الليلب الزَّفَـــراتِ
إذا ما الثُّريا آخِرَ الليلِ أعْنَقَـت ... كَواكِبُها كـالجِزْعِ مُنْحَدِرَاتِ
هنالك لا أخشى مقالة قائـــلٍ ... إذا انتبذ العزّاب في الحجَـــرات
لهم نَفَرٌ مِثْلُ التُّيوسِ ونِسْـــوَةٌ ... مما جيرُ مثل الأُتنِ النَّعِـــرات
لَعَمْرِي لقد جَرَّبْتُكُمْ فَوَجَدْتُكُـمْ ... قِبَاحَ الوُجُـــوهِ سَيِّئي العَذِرَاتِ
وجدتكمُ لم تجبُروا عظم معـرمٍ ... و لاتنحرون النّيب في الجحراتِ

[1] اللزوميات في الشعر العربي الحديث الرؤية والتشكيل الفني د/عبد الله بن سليم الرشيد مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية ص٣٩١ ج١٩،ع٤١،جمادي الآخرة ١٤٢٨هـ
[2] ديوان كثير عزة شرح د/إحسان عباس ص٢٧ دار الثقافة .
[3] ديوان الحطيئة شرح أبي سعيد السكري ص٤١، دار صادر بيروت (١٣٨٧. ١٩٦٧م) .

فإن يصطنعني الله لا أصطنعكمُ ... و لا أوتكمْ مالي على العثراتِ
عطاءُ إلهي إذ بخلتـــم بمالكـــم ... مهاريسُ ترعى عازب القَفَراتِ
مهاريسُ يروي رسلُها ضيفَ أهلها ... إذا النَّارُ أبدَتْ أَوْجُهَ الخَفِـرَاتِ
عِظَامُ مَقِيل الهَـــامِ غُلْبٌ رِقَابُها ... يُبَاكِرْنَ بَرْدَ الماءِ في السَّبَـرات
يزيلُ القتاد جدبها عن أصولـــه ... إذا ما عَدَتْ مَقْرُرَةً خَصـــرَاتِ

تقول د/ بان حميد فرحان الراوي في كتابها(الحطيئة في معيار النقد قديماً وحديثاً) : " فقد التزم الراء في جميع أبياته مثل حرف الروي، وهي غير لازمة فيها . ويبدو أنه عمد لذلك لإثبات وجوده ،وبيان قدراته أمام قومه الذين لم يحفلوا به حباً واحتراماً، كما كانت قبائل العرب تحفل بالشعراء من أبنائها وتتفاخر بهم."[1]

لكن هناك فرق بين صنيع الحطيئة وصنيع أبي العلاء ،إذ الجديد في صنيع أبي العلاء أن أفرد لها ديواناً نظمه في مرحلة العزلة " وفق تخطيط هندسي دقيق رسمه في ذهنه وهو يبدأ حياته الجديدة في عزلته،والتزامه على امتداد هذه الحياة دون أن يفكر في تغييره أو تطويره، أو أن يستبدل به مذهبا آخر،لسبب بسيط وهو أنه كان مقتنعاً به،مطمئناً إليه؛لأنه انعكاس صادق لحياته التي التزمها في صراحة عنيفة مقتنعا بها،مطمئنا إليها،في أعماق سجونه الثلاثة. وأيضاً لأنه تراءى له المجال الذي يستطيع أن يظهر فيه مهاراته اللغوية وقدراته العروضية وثقافاته الأدبية والعقلية المتعددة"[2]

وفي اللزوميات تكلف أبو العلاء ثلاث كلف حيث يقول: "وقد تكلفت في هذا التأليف ثلاث كلف،الأولى:أن ينتظم حروف المعجم عن آخرها، والثانية: أن يجيء رويه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك، والثالثة: أنه لزم مع كل رويّ فيه شيء لا يلزم من ياء أو تاء أو غير ذلك من الحروف"[3]

إن أساس التفكير الفلسفي لأبي العلاء ينطلق من عدة أمور هي: حياته الشخصية ، تشاؤمه، زهده، ثقافته ، فأبو العلاء لم يستطع أن يهتدي إلى نظرية أو منهج كالفلاسفة في كثير من المسائل والمشكلات فشك واتسع عليه الشك، وهذا ظاهر في لزومياته حيث تدور اللزوميات حول فلسفة أبي العلاء في الحياة الإنسانية وموقف الإنسان منها ومصيره بعدها. فأبو العلاء يؤمن بما يصل إليه الحس ويدرك بالعقل ، أما ما وراء ذلك مما لا يصل إليه العقل فهو مجال للشك والحدس ، حيث يتحدث في لزومياته عن مجتمعه وعلماء الدين والسياسة ومصير الإنسان بعد الموت والروح واليوم الآخر وغيرها ، ويعالج هذه الموضوعات معالجة تكشف أحياناً عن يقين صادق ، وأحياناً

[1] الحطيئة في معيار النقد قديما وحديثا د/بان حميد فرحان الراوي،دار دجلة ط١ (٢٠٠٧م) ص ١٤٣
[2] في الشعر العباسي نحو منهج جديد د/يوسف خليف، دار غريب ص٢٢٢
[3] اللزوميات لأبي العلاء المعري شرح نديم عدي ص٢٢ .

عن حيرة وشك ، ففلسفة أبي العلاء قائمة على الشك في كل شيء إلا الله والعقل فهو القائل في العقل [١]:

كَذَبَ الظَنّ لا إمامَ سِوى العَقلِ مُشيراً في صُبحِهِ وَالمَساءِ

وهو القائل في الشك [٢]:

أَمّا اليَقينُ فَلا يَقينَ وَإِنَّما أَقصى اِجتِهادي أَن أَظُنَّ وَأُحدِسا

وقد وزع الدكتور طه حسين في كتابه (تجديد ذكرى أبي العلاء) موضوع فلسفته على أربعة اتجاهات : فلسفة طبيعية، وفلسفة رياضية، وفلسفة إلهية، وفلسفة عملية[٣]. كما يرى أن مصادر الفلسفة العلائية في اللزوميات مختلفة أهمها: الحياة نفسها، ومنها الفلسفة اليونانية، الفلسفة الهندية، الفلسفة الفارسية، وكتب الدين على اختلافه، ومن هنا تكون المزاج الفلسفي العلائي[٤].

وأصول التفكير الفلسفي العلائي هي: زهده، تشاؤم واسع، العقل، صلة الإنسان بربه ومدى حريته إزاء ما سجله القضاء عليه في ألواح الغد، القول بحدوث العالم وما يتصل به من المادة والزمان والكواكب، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر[٥] ، حيث عاش أبو العلاء مطبقاً فلسفته على أسلوب حياته وشعره ، وهي فلسفة تتصل بحالته النفسية، فلسفة يسودها التشاؤم واليأس من كل شيء في الحياة، واختلفت نظرة أبي العلاء إلى الحياة عن نظرة غيره كأبي العتاهية، فزهد أبي العتاهية في الحياة يختلف عن زهد المعري الذي يصح أن نطلق عليه زهداً فلسفياً،خاصة أن الفلسفة التي نسبت إليه كان أساسها أنه كان نباتياً كالفلاسفة الهنود ، فقد كان أبو العلاء واضحاً صريحاً في " الكشف عما في مكنون نفسه من آراء، سواء ذلك فيما يتصل بالناس والجماعات ، أو ما يتصل بالدين والمعتقدات، وسواء أكان ذلك عن رضا أو سخط، أو عن يقين أو شك، إذ لا شيء عنده فوق النقد، ولو كان ذلك في الدين، وما شرع الله من شرائع، وما قضى سبحانه من أحكام"[٦].

ومن خلال الأسباب التي أدت إلى عزلته وأصول فلسفته أرى أن أبا العلاء استطاع أن يطوع الشعر للفلسفة في ديوان (اللزوميات) باعتباره شاعراً لا فيلسوفاً ، فاللزوميات قائمة على الفلسفة شكلاً ومضموناً ، شكلاً من حيث لزوم ما لا يلزم ، ومضموناً من حيث الموضوعات التي تضمنتها اللزوميات ، فلم يكتف المعري بإلزام نفسه اللوازم الشكلية فقط، فاللزوميات عنده تنطلق من تعقيدات خارجية وتعقيدات داخلية، والتعقيدات الداخلية تنحصر في ثلاث لوازم هي: اللوازم اللغوية، واللوازم الثقافية، واللوازم البديعية. وقد دفعته اللوازم الشكلية إلى البحث عن الألفاظ الغريبة ليحقق ما يريد ، ودفعته ثقافته العربية والأجنبية إلى توظيفها في لزومياته لتصوير ما يريد عن طريقها، أما اللوازم البديعية فهي ظاهرة في لزومياته حيث التلاعب بالألفاظ عن طريق الطباق والجناس، ومن

[1] اللزوميات ص ٤٧
[2] اللزوميات ص ٤٢١
[3] ينظر تجديد ذكرى أبي العلاء د/طه حسين ص ٢٦٤ ط٣ مطبعة المعارف (١٣٥٦/١٩٣٧).
[4] ينظر المرجع السابق ص٢٥٥
[5] فصول في الشعر ونقده د/ شوقي ضيف ص١١٣
[6] رهين المحبسين أبو العلاء المعري بين الإيمان والإلحاد عبد الكريم الخطيب ص٧٠

أمثلة لزومياته في الراء المضمومة مع الدال والتي يظهر فيها استخدامه لمصطلحات النحو والصرف وفيها يفسر الصلة بين الأصول والفروع قوله [1]:

حَوَتنا شُـــــرورٌ لا صَلاحَ لِمِثلِهـــا ... فَإِن شَذَّ مِنّا صالِحٌ فَهوَ نـــادِرُ
وَما فَسَدَت أَخلاقُنـــا بِاِختِيارِنـــا ... وَلَكِن بِأَمـــرٍ سَبَّبَتهُ المَقـــادِرُ
وَفي الأَصلِ غِشٌّ وَالفُـــروعُ تَوابِـــعٌ ... وَكَيفَ وَفاءُ النَجلِ وَالأَبُ غـادِرُ
إِذا اِعتَلَتِ الأَفعالُ جـاءَت عَلَيلَـــةً ... كَحالاتِها أَسماؤُها وَالمَصـــادِرُ
فَقُل لِلغُرابِ الجَونِ إِن كانَ سامِعـــاً ... أَأَنتَ عَلى تَغييرِ لَونِكَ قـــادِرُ
سَماحُكَ مَجهولٌ وَنَحلُكَ واضِـــحٌ ... وَمَجدُكَ ضاوِيٌّ وَجِسمُكَ حادِرُ
بَني العَصرِ إِن كانَت طُوالاً شُخوصُكُم ... فَإِنَّكُم في المَكرُمـــاتِ حَيـــادِرُ
وَمِن قَبلُ نادى الوَكرُ أَينَ اِبنُ أَجـــدَلٍ ... أَواني وَقالَ الغابُ أَينَ الخَـــوادِرُ
وَفي كُـــــلِّ أَرضٍ لِلمَنِيَّةِ غائِـــلٌ ... عَلَيهِ يَمينٌ أَنَّـــــهُ لا يُغـــادِرُ
فَـــــوادٍ بِـــهِ ظَبيٌ وَلَيسَ لِنَفسِـــهِ ... فُوادٍ وَتَردى في ذُراها الفَـــوادِرُ

وقوله في التاء المكسورة مع الواو المشدَّدة الذي يظهر فيه استخدامه المعقد للجناس [2]:

عَذيري مِنَ الدُنيا عَرَتني بِظُلمِها ... تَمنَحَني قُوَّتي لِتَأخُذَ قُوَّتـــي
وَجَدتُ بِها ديني دَنِيّاً فَضَرَّنـــي ... وَأَضلَلتُ مِنها في مُـروتٍ مُرُوَّتي
أَخوتُ كَما خانَت عُقابٌ لَو اِنَّـني ... قَدَرتُ عَلى أَمـــرٍ فَعُدِّ أُخُوَّتي
وَأَصبَحتُ في تيهِ الحَياةِ مُنادِيـــاً ... بِأَرفَعَ صَوتي أَينَ أَطلُبُ صُوَّتـي
وَما زالَ حُوتي راصِدي وَهوَ آخِذي ... فَما لِمَتابي لَيسَ يَغسِلُ حُوَّتـي
رَآنِيَ رَبُّ النـــاسِ فيها مُتابِعاً ... هَوايَ فَوَيحي يَومَ أَسكُنُ هُوَّتـي
وَما بَرِحَت لـــي أَلـــوَّةٌ حَرَجِيَّةٌ ... تُصَيِّرُ مِن رَطبِ العِضاهِ أَلُوَّتـي
أَبوَتُكَ يا إِثمي وَمَن لـــي بِأَنَّني ... أَتَيتُكَ فَاِشكُر لا شَكَـرتَ أُبُوَّتي

و قوله في الهمزة المكسورة مع الميم [3]:

القلبُ كالماءِ، والأهـــــــواءُ طافيةٌ	عليه، مثلَ حَبابِ الماءِ في المـــــاءِ
منه تنمّت ويأتـــــــي ما يغيّـــرها،	فيُخْلِقُ العَهدَ من هندٍ وأسمـــاءِ
والقولُ كالخلقِ، من سَيْءٍ ومن حسَنٍ،	والناسُ كالدّهرِ، من نور وظَلماءِ

[1] اللزوميات (٥٦١/٢)
[2] اللزوميات (ج٢٦٩/١)
[3] اللزوميات ص ٤٨

يُقالُ: إنّ زمانـــاً يَستقِيدُ لهـــم،	حتى يُبَدِّلَ من بُـــؤسٍ بِنَعمـــــاءِ
ويوجدُ الصقرُ في الدّرماء، معتقداً	رأيَ امرىء القيس في عمرو بن درماءِ
ولستُ أحسِبُ هذا كائناً أبـــداً،	فابغِ الوُرودَ لنفسٍ ذاتِ أظمـــــاءِ

وقوله[1]:

سأخرج بالكراهة، من زمانـي ... وفي كشحي، من يده، قطاع
وما زال البقاء يرث حبلـي، ... إلى أن حان، للمرس، انقطاع
لبيب القوم تألفه الرزايـا، ... ويأمر بالرشاد، فلا يطـاع
فلا تأمل، من الدنيا، صلاحا، ... فذاك هو الذي لا يستطـاع

وقوله أيضاً في التاءِ المضمومة مع الباء[2]:

أَرى الأَشياءَ لَيسَ لَها ثَبـــاتُ ... وَما أَجسادُنـــا إِلّا نَبـــاتُ
بِإِذنِ اللَهِ تَفتَـــرِقُ البَرايـــا ... لِطيَّتِها وَتَجتَمِعُ الثُبـــاتُ
أَجَلَّت سَبتَها أَشيـــاعُ موسى ... أَسَبتُ القَطعِ ذاكَ أَم السُباتُ
سألت عن البواكر أين أضحت، ... وعن أهل التروح أين باتـوا
وهل أرواح هذا الخلـــق إلا ... عواري المقادر، لا الهبـات؟
تبغض ساعنا أبدا إلينـــا، ... وهن إلى النفوس محببـات
جياد ما يزال لهـــا خبيب، ... قوارب بالأنيس مقربـات
ومن يحمى ونسوة آل كسـرى ... وقوف بالعراء، مسلبـات؟
وما يدري الفتى، والظن جهل، ... وأقضية المليك مغيبـات
لعل بنات نعـش والثريـا ... وشرقة، للردى، متأهبـات

إن فلسفة أبي العلاء، وإن لم تكن فلسفة فيلسوف بمعناها الحقيقي، إلا أنها تعد محاولة جديدة لوضع الشعر في هذا القالب الفلسفي الجديد ، وتناول موضوعات تختلف عن موضوعات الشعر المطروقة في عصره ،ومناسبة هذا الأسلوب لما التزمه في حياته وتطبيقه على شعره ، فقد نظر إلى ما يشغل فكره بنظرة فلسفية خاصة به تختلف عن الفلسفة اليونانية والهندية والفارسية التي اطلع عليها ، وبهذا حول الشعر إلى بناء فلسفي تحولت قصائده معه إلى مجموعة من النصوص الفلسفية.

[1] اللزوميات ص٤٧٦
[2] اللزوميات ص ١٢٤

ومن هنا يعد صنيع المعري في لزومياته عملاً جديداً يتصل بحالته النفسية التي أرادت إثبات مكانتها في عصره من خلال قدرته اللغوية وثقافته الفلسفية؛ وهذا ما أكده كثير من الباحثين ومنهم:د/شوقي ضيف حيث وصف اللزوميات :"بأنها من طراز جديد تتضمن نقداً للحياة الاجتماعية مع دعوة واسعة إلى الزهد والتقشف ورفض الدنيا، ويسوده في ذلك كله تشاؤم واسع، فالحياة كلها الآم ونصب، وكان الشعراء قبل أبي العلاء يعنون بهذا الجانب، وخاصة أبا العتاهية و المتنبي"[1] ويضيف د/ شوقي ضيف قوله عن فلسفة أبي العلاء : "لم يكن فيلسوفاً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ،وآية ذلك أنه لم يترك نظرية فلسفية معللة أو موضحة ،وكيف له بصنع نظريات؟ إنه لم يكن يفكر التفكير الفلسفي الذي يقوم على صنع الكليات، وإنما كان يفكر تفكيراً أدبياً يقوم على تشاؤم وسخط، وهو يعرض هذا التفكير في آراء متفرقة وأفكار مفككة، لا يطرد لها نظام ولا سياق فكري متماسك"[2]

كما يرى الأب يوحنا قمير في كتابه (المعري في لزومياته) بأن اللزوميات "فلسفة لم تقصد لذاتها، وإنما هي حالات نفسية انتابت صاحبها، فكونت فلسفة اصطبغت بالشعر، وكثرت فيها المراجعات ،وفقد التأليف ،ويرى أننا نمسح فكرة المعري إذا حللنا اللزوميات ككتاب فلسفي عادي ...لأنها قبل كل شيء صدى روح فكرت كثيراً، وشعرت كثيراً، وشقيت كثيراً. "[3]

ويذكر د/ عفيف عبد الرحمن في كتابه (ظاهرة التشاؤم) رأيه فيقول : "ونحن نميل إلى أن اللزوميات نظمها الشاعر ليرد على تحدي العالم له آنذاك ،وليثبت مقدرة لغوية وأدبية وعروضية وفلسفية، وليجبرهم على الاعتراف به؛ فاللزوميات مرآة صادقة وسجل واضح لحياته ونفسه"[4].

وذهب د/ علي كنجيان في كتابه (مصادر ثقافة أبي العلاء) إلى رأي آخر في لزوميات المعري حيث يرى أنه " نظم هذا الديوان في عهد العزلة بعد رجوعه من بغداد حيث كان قد انتهى من الدرس والبحث وصارت لديه ذخيرة لغوية وأدبية واسعة، فنظر أبو العلاء ورأى نفسه بين الألفاظ والآراء والمعاني التي لا تكاد تحصى، ثم نظر فوجد أوقات فراغ طويلة لا يمكن احتمالها ولا يمكن الصبر عليها، فاستعان بهذه الألفاظ وتلك المعاني على قطع هذا الفراغ الطويل"[5].

ويختلف عنهم الدكتور يوسف خليف إذ يرى أن أبا العلاء المعري قد بنى لزومياته "بناء عقلياً خالصاً ، واستطاع أن يتحول به إلى ما يشبه أن يكون كتاباً في الفلسفة خاضعاً لمنهج عقلي دقيق سجل فيه صاحبه آراءه الفلسفية في شكل نظرية متكاملة".[6]

كذلك يختلف الدكتور طه حسين في تفسيره للزوميات حيث يرى أن أبا العلاء لم يرد " أن يظهر في كتاب اللزوميات ،مقدرته اللغوية وبراعته في قرض الشعر ،كما ظن طائفة من الناس،

---

[1] الفن ومذاهبه د/شوقي ضيف ص٣٨١

[2] المرجع السابق ص٣٩٤

[3] ظاهرة التشاؤم في الشعر العربي من أبي العتاهية إلى أبي العلاء د/عفيف عبد الرحمن ص ٤٢٩، دار العلوم (١٤٠٣.١٩٨٣م)

[4] ظاهرة التشاؤم في الشعر العربي من أبي العتاهية إلى أبي العلاء د/عفيف عبد الرحمن ص ٤٢٨

[5] مصادر ثقافة أبي العلاء من خلال ديوان لزوم ما لا يلزم د/على كنجيان ص ٥١، الدار الثقافية .

6. في الشعر العباسي د/يوسف خليف ص١٧٥

وإنما سلك هذا المسلك فيما نعتقد، ليكون أدعى إلى إيثار الغريب والاستكثار منه، حتى تخفى أغراض الكتاب على كثير من الناس، لم يكن يحب أن يظهروا عليها. وهذا فيما نرى علة حبه للرمز والإيماء، وإيثارالألفاظ الجافية، والمعاني الغريبة"[1]

وأخيراً فقد أثرت لزوميات المعري في الشعراء بعده وامتد تأثيرها إلى العصر الحديث، وإن لم تكن اللزوميات كثيرة في شعرهم لكن نفراً منهم خصوها بعنايتهم ، فقد ذكر د/ عبد الله بن سليم الرشيد في بحث له بعنوان (اللزوميات في الشعر العربي الحديث، الرؤية والتشكيل الفني)[2] أن اللزوميات لم تكن كثيرة عند شعراء العصر الحديث ،ولكن نفراً منهم خصوها بعنايتهم ،فأصدروا دواوين لزومية على طريقة المعري،وتبرز آثار المعري الفكرية في هذا النتاج من حيث الميل إلى التأمل وإيراد الحكم ونحو ذلك،على أنهم خرجوا عن الإطار الذي حبس المعري نفسه فيه، وتعد لزوميات الشعر الحديث ظاهرة من ظواهر الحنين إلى النمط العربي القديم،وإيثاراً لعمود الشعر،ونوعاً من الانتصار للفصحى. لقدكان التفات بعض الشعراءإلى هذاالفن في العصر الحديث ثمرة لأسباب عدة، فمنهم من كان يلزم ما لا يلزم إتباعاً للقدماء الذين كانوا يقصدون الإبانة عن الاقتدار والتوسع وفسحة مجال الفكر ،ولعل أبرز هؤلاء محمود سامي البارودي الذي كان حريصاً على أن يظهر مقدرته وتمكنه من صناعته،وفيضان قريحته،وإحاطته بكثير من غريب اللغة .والشعراء الأكثر تأثراً بالمعري أربعة، هم عبدالرحيم محمود، والثاني :أحمد مخيمر، والثالث: عبدالعزيز السعدني، والرابع : أحمد الشامي فللأول اثنتان وعشرون لزومية أدرجت معاً تحت عنوان(أفكار في لزوم مالا يلزم)،وللثاني لزوميات سماها(لزوميات مخيمر) أهدى قسمها الأول (الحياة والوجود) إلى روح أبي العلاء، أما الثالث: عبدالعزيز السعدني فله دويوين سماه لزوميات جديدة ، أما أحمد الشامي فله لزوميات كثيرة تتبع فيها لزوميات المعري قطعة قطعة.

ومن هنا تحولت تجربة أبي العلاء إلى محاولة ناجحة وتجريب كتب له النجاح وإن لم يتخذ شكل الفن المستقل؛ لكنه إبداع استطاع من خلاله أن يثبت مقدرته اللغوية والثقافية، وأن ينتج شعراً علائياً مميزاً حيث جعل الجميع يشغل بدراسة هذا النوع من الشعر.

وبهذا يمكن القول:إن المعري بتفكيره الفلسفي في لزومياته نجح في تطويع الشعر للفلسفة بأسلوب شاعر يملك عوامل شخصية و قدرة لغوية وثقافة متنوعة ، وظفها جميعاً في معالجة تلك الأفكار والتساؤلات التي استقرت في نفسه وعقله ،ونجح في معالجتها معالجة أقرب إلى الأسلوب الفلسفي منه إلى أسلوب فيلسوف حقيقي ، فكان أن أخرج ديوانه بحلة جديدة تعكس تجربته في إخراج مثل هذا النوع من الدواوين .

ومن أبرز الملاحظات والنتائج التي خرجنا بها من هذا البحث ما يلي:

١. انعكاس الحياة العباسية الجديدة على إنتاج الشعراء العباسيين، وخاصة توظيف الشعراء العباسيين للعلوم الجديدة في شعرهم كالفلسفة والمنطق.

---

[1] تجديد ذكرى أبي العلاء د/طه حسين ص٢١٨ .

[2] ينظر اللزوميات في الشعر العربي الحديث الرؤية والتشكيل الفني ص ٣٩٢ وما بعدها .

٢. تنوع أساليب الشعراء العباسيين نتيجة توظيفهم للفلسفة في شعرهم كلٌّ بحسب فكره وثقافته.
٣. التفكير الفلسفي لأبي العلاء المعري في لزومياته كان نتيجة عوامل تشكل بعضها مع بعض مكونة لديه القدرة الشعرية على إنتاج مثل هذا الديوان .
٤. لزوميات المعري لم تكن صدى لنفسيته وثقافته فقط، بل كان الأساس الأول لها هو: تبني أفكار فلسفية نشأت من الأسباب التي أدت به إلى العزلة والزهد والتشاؤم .
٥. توظيف الفلسفة في الشعر ليس جديد أبي العلاء، لكن الجديد هو إفراد ديوان لذلك والتزامه بلوازم داخلية وخارجية ، وطريقة توظيفه لما يتصل بتشاؤمه وشكه وأفكاره الفلسفية.
٦. لا نستطيع أن نطلق على المعري فيلسوفاً، لكن يمكن جعله أول شاعر يتبنى أفكاراً فلسفية يعرضها في قالب شعري يخلو من عناصر الشعر ، وهو بهذا العمل الشعري استطاع أن يطوع الشعر للفلسفة في لزومياته و يوظف الفلسفة بشكل يختلف عن سابقيه من الشعراء، فالتجربة الشعرية لأبي العلاء في لزومياته تعد تجربة جديدة في الشعري العربي لم يسبقه إليها أحد، وكذلك تسمية دواوينه.

والله ولي التوفيق .

ثبت المصادر والمراجع

- أبو العلاء وما إليه جمعه ورصفه عبد العزيز الميمني دار الكتب العلمية ط١ (٢٠٠٣/ ١٤٢٤)
- الأعلام خير الدين الزركلي ،دار العلم للملايين ط٥(١٩٨٤).
- الحطيئة في معيار النقد قديما وحديثا د/بان حميد فرحان الراوي،دار دجلة ط١ (٢٠٠٧م)
- الفن ومذاهبه د/شوقي ضيف ،دار المعارف.
- المعجم الوسيط إبراهيم أنيس ورفاقه .ط٢ .
- اللزوميات لأبي العلاء المعري شرح نديم عدي (ط٢/١٩٨٨) دار طلاس .
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ،دار الكتاب العربي.
- تجديد ذكرى أبي العلاء د/طه حسين ط٣ (١٣٥٦/١٩٣٧) مطبعة المعارف.
- تجليات الإبداع الأدبي دراسات في العصر العباسي الثاني ، د/محمود علي عبد المعطي ،دار النشر الدولي ط١(١٤٢٨.٢٠٠٧م).
- ديوان الحطيئة شرح أبي سعيد السكري، دار صادر بيروت (١٣٨٧. ١٩٦٧م)
- ديوان كثير عزة ،شرح د/إحسان عباس ،دار الثقافة.
- رهين المحبسين أبو العلاء المعري بين الإيمان والإلحاد عبد الكريم الخطيب ، دار اللواء ط١(١٤٠٠ /١٩٨٠).
- ظاهرة التشاؤم في الشعر العربي من أبي العتاهية إلى أبي العلاء ، د/عفيف عبد الرحمن، دار العلوم (١٤٠٣.١٩٨٣م)
- فصول في الشعر ونقده د/شوقي ضيف ،دار المعارف ط٣ .
- في الشعر العباسي نحو منهج جديد د/يوسف خليف، دار غريب .
- مصادر ثقافي أبي العلاء المعري من خلال ديوان لزوم ما لايلزم ، د/ علي كنجيان خناري ، الدار الثقافية.
- معجم الأدباء ياقوت الحموي تحقيق عمر الطباع مؤسسة المعارف ط١(١٩٩٩)
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الانباري.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان تحقيق إحسان عباس دار الثقافة.
- الدوريات: اللزوميات في الشعر العربي الحديث الرؤية والتشكيل الفني ، د/عبد الله بن سليم الرشيد، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية ج١٩،ع٤١،جماد الثاني ١٤٢٨هـ.